

## العالم والحكيم مفكراً فنانياً

الدكتور أحمد عثمان (\*\*)

يبدأ الأستاذ محمود أمين العالم هذه الطبعة<sup>(١)</sup> بقوله «لقد غاب عنا توفيق الحكيم مؤسس الأدب المسرحى فى أدبنا العربى الحديث، وكاد أن يغيب كذلك الأدب المسرحى فى أدبنا المعاصر، بل كادت أن تغيب روح المسرح فوق خشبة المسرح فى بلادنا لولا قلة محدودة للغاية من الكتّاب والمخرجين والممثلين الذين لا يزالون يجاهدون بجديّة وصلابة وشرف فى مواجهة موجة كاسحة من التسطح والابتدال فى ثقافتنا المسرحية».

ولا أجد مثل هذه الفقرة فى كل ما كتب عن توفيق الحكيم حياً وميتاً من حيث الإنصاف والتوازن فى الحكم على أعمال هذا العملاق الذى تطاول عليه الكثيرون.

فمحمود أمين العالم يربط ربطاً عضويّاً بين الحكيم وروح المسرح فوق خشبة المسرح من جهة وبين العملية المسرحية والبنية الثقافية للمجتمع من جهة أخرى. وهذا ما يتسق تماماً مع عنوان الكتاب «الحكيم مفكراً فنانياً»، بل ويتسق مع شخصية مؤلف الكتاب نفسه، فهو من خيرة النماذج الأصيلة لصورة «المفكر الفنان».

تضعنا إذن العبارة الأولى فى الكتاب أمام جوهر القضية المطروحة فى صفحاته كلها من البداية للنهاية، أى ثنائية الفكر والفن حيث يقول المؤلف بعد ذلك فى مستهل المدخل «ما أندر ما نجد أديباً عربياً، تتجانس حياته وفلسفته وفنه، هذا التجانس الحميم الذى نجده فى توفيق الحكيم إنساناً ومفكراً وأديباً فنانياً».

(\*) الدكتور أحمد عثمان، رئيس قسم الدراسات الكلاسيكية، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

(١) الطبعة الثالثة. دار قضايا فكرية، للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٤.

ولكننا ما أن نمضى فى الكتاب قليلاً حتى نكتشف أن هذا التجانس ليس بهذه السلاسة، إذ يقول المؤلف فى الصفحة التالية .

«إنه صاحب رأى وموقف على رغم ما قيل عنه - أو ما اصطنعه هو لنفسه - من أنه صاحب برج عاجى، إن المفكر فى توفيق الحكيم هو جوهر الفنان فيه .

وهو مفكر أكثر مما هو فنان، ولكنه فى الحقيقة فنان أقدر وأعظم مما هو مفكر، إن فنه دائماً فى خدمة فكره، ولكن فنه دائماً أرقى من فكره . . إن الفنان فيه هو الذى أتاح هذا اللمعان والتأنق لفكره، على الرغم مما فى فى هذا الفكر أحياناً من تجريد أو سطحية أو تخلف . . سيظل الفنان فيه هو الإضافة الخلاقة الحقيقية التى أضافها إلى تراثنا العربى .

ولا ينتظر المرء غير هذا الحكم على توفيق الحكيم الفنان المفكر من محمود أمين العالم المفكر الفنان الذى يناقش جميع الثنائيات فى أعمال توفيق الحكيم مثل الموروث والمكتسب، التقدمية والرجعية، الفن والحياة، الحلم والواقع، الوهم والحقيقة، الحرية والطغيان وما إلى ذلك .

فيقول مثلاً عن «عودة الروح» أول عمل روائى للحكيم إنها من أبرز أعماله، بل لعلها كانت نقطة انتقال حاسمة فى فن الرواية العربية بعد «زينب» (محمد حسين هيكل) مضموناً وبناءً وفكراً، فهى عمل روائى ذو رؤية فنية وإنسانية موحدة، فيه اقتدار تعبيرى على خلق الشخصية ذات السمة القومية وأبعادها النفسية والاجتماعية، وهى تتحرك بأحداثها الواقعية وفى قلبها رفيف رمز أكبر من مجرد عناصرها الواقعية» .

فإذا كان توفيق الحكيم متأرجحاً بين الفن والفكر لصالح الطرف الأول، فإن ناقدته محمود أمين العالم يميل فى هذه الأرجوحة منحازاً لصالح الفكر، فينهى كلامه عن «عودة الروح» قائلاً: «على أنى أزعم أن رؤية توفيق الحكيم لثورة ١٩١٩ فى روايته «عودة الروح» لم تكن مجرد انتساب أو امتداد لفكر محمد عبده ولطفى السيد، أو مجرد حصيلة لخبرته الفكرية والاجتماعية خلال هذه المرحلة من حياته فى مصر، وإنما كانت كذلك متأثرة برحلته إلى فرنسا عام ١٩٢٥، لا من الناحية الفنية فحسب بل من الناحية الفكرية كذلك» . ويقول عن «عصفور من الشرق» إنها «ليست رفضاً لأوروبا بل هى امتداد لفكر أوروبى رجعى كان يقف ضد العلمانية والعقلانية والاشتراكية» .

يصف محمود أمين العالم تعادلية الحكيم بأنها مختلفة لأن «هذا التوازن المسطح نفسه كان هو الاختلال أو النقيصة في فلسفته الفنية والاجتماعية على السواء».

وتستمر مأساة التوازن المختل بين ثنائيات توفيق الحكيم كما يشخصها محمود أمين العالم في «شهر زاد» و«أهل الكهف»، حيث رفض الحكيم فيهما «العقلانية»، في «شهر زاد» ينهزم العقل، وفي «أهل الكهف» يتصر القلب. ولقد ظهرت المسرحية الأخيرة - كما يقول العالم - في أخطر مرحلة من تاريخ مصر (أى أواسط الثلاثينيات) حيث كانت تحتاج إلى العقلانية وإلى فهم الزمن إيجابياً وفهم العقل فهماً خلاقاً ولهذا - كما يستتج العالم - فمسرحيتا الحكيم سالفتا الذكر رجعتان. أما في «بيجماليون» كما يقول العالم تبقى المأساة مأساة اكتشاف التوازن بين الفن والحياة، بين الحلم والواقع. ولكن المأساة لا تكون بسبب اختلال التوازن في اتجاه الفن وإنما في اتجاه الحياة.

ومن أخطر القضايا التي يتعرض لها العالم بالنسبة إلى مسرح توفيق الحكيم هو ما نجده في العبارة التالية:

«وأحب أن أؤكد منذ البداية أننا لن نجد تناقضاً بين أعماله المسرحية التي يطلق عليها المسرح الذهني، وأعماله الفنية عامة التي تعالج القضايا الاجتماعية معالجة مباشرة. ولهذا تختلف مع بعض الكتاب.. الذين يهتمون بكتاباتة الفنية الذهنية الخالصة ويهملون كتاباته الفنية الاجتماعية باعتبار أن الحكيم كتبها من قبيل الواجب الاجتماعي». هكذا يدافع العالم عن الحكيم قائلاً «إننا إذا وجدنا في تعادليته الفلسفية جنوحاً نحو القلب أو الإيمان سنجد كذلك في موقفه الإصلاحى الاجتماعى جنوحاً الى المهادنة للنظام القائم السائد، أى أن الحكيم يتخذ موقفاً نقدياً لا يمس جوهر النظام الاجتماعى السائد».

ويرى محمود أمين العالم أن الحكيم فى مسرحية «براكسا» قد تخلى عن مفهومه التعادلى التوازنى الأثير إلى قلبه عندما سلط الضوء على فشل الحكيم المتوازن بين سلطة القوة (هيرونيوس)، والقلب (براكساجورا - وليس براكساجوراس كما يرد فى ص ٩٤)، والعقل (الفيلسوف). فتتخطى هذه المسرحية «براكسا أو مشكلة الحكيم» حوارياته فى «شجرة الحكم» التى يرى فيها المشاركة فى الحكم مفسدة وأى مفسدة.

ويعترف العالم للحكيم بالعبقريّة الدرامية الدفاقه فى مسرحية «السلطان الحائر» التى يعتبرها من أنضج مسرحيات الحكيم من حيث الحكمة المسرحية وتدقيق الحوار الحار، كما

أنها دعوة إيجابية للديمقراطية . وإن كان العالم يفضل أن يكون جماهير الشعب - لا الغانية - هم الذين يشتركون السلطان ثم يحرقونه بإرادتهم .

وفى مقال نشر عام ١٩٦٥ رحب محمود أمين العالم بمسرحية «شمس النهار» وعدّها إضافة جادة لمسرحنا العربى وبداية مشرقة وساطعة لموسم ذلك العام المسرحى .

ولكم كنا نتمنى أن يتنازل العالم قليلاً عن انحيازه للقضايا الفكرية وابتذال جهداً أوفر فى تناول جوانب البناء الفنى لمسرح توفيق الحكيم وليس هناك أقدر من محمود أمين العالم على نفى أكذوبة المسرح الذهنى التى اصطنعها بعض النقاد بتشجيع من الحكيم نفسه ، فالمشكلة برأينا تقع فى جانب المتلقى لا المبدع .

ومع أن كاتب هذه السطور قد انشغل كثيراً بتوفيق الحكيم وأسهم إسهاماً متواضعاً فى شرح مسرحه شكلاً ومضموناً فإننا قد وجدنا فى كتاب محمود أمين العالم - وفى طبعته الثالثة - زاداً جديداً يعيدنا إلى عالم الحكيم مرة أخرى فى سبيل إعادة النظر ومراجعة الأحكام والمحاولة الحثيثة لسبر أغوار عملاق المسرح العربى الذى هو بحق - كما يقول العالم - المؤسس الذى بغيابه غاب عنا هذا الفن الراقى . ولعل فى عودتنا لتوفيق الحكيم نسعى إلى «عودة الروح» إلى مسرحنا وجمهورنا المفقود وبمناسبة مرور مائة عام على مولده .